كيف نعبر الشدائد بثبات؟

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ٢٠٠٩/٧/٣م

مع كثرة المطففين الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ..

ومع كثرة النوع الذي يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ..

ومع كثرة الذين لا يذكرون الله إلا قليلاً، وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى..

ومع كثرة الصنف الذي يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ..

ومع كثرة المشككين، وكثرة المذبذبين، وكثرة المخلَّفين الذين فرحوا بكسلهم وخمولهم وقعودهم..

ومع قلة النوع الذي أيقن أن الله تبارك وتعالى أرسل رسوله لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ..

ومع قلة النوع الذي أيقن أن الله تعالى كتب لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي..

ومع كل هذا يجد الإنسان نفسه وهو يتوجه إلى الله، ويتمسك بحقائق القرآن، وبثوابت الإسلام، وهو يجتهد من أجل أن يقتدي بسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام... يجد نفسه في حالة عصيبة، فالشدائد حسًّا ومعنىً تحيط به من كل مكان وتبطئه وتثبّطه... وفي مثل هذا الظرف يحتاج الإنسان إلى جواب على سؤال:

كيف لي أن أعبر هذه الشدائد بثبات؟

والقرآن الكريم الذي هو كلام الصادق سبحانه، والذي نقله إلينا الصادق المصدوق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، نبّهنا إلى التمسك ببعض الأمور التي تعين المؤمن في مثل هذه الظروف، والتي نحتاج كلنا أن نتذكرها وأن نطبقها وأن نحققها حتى نعبر بثبات هذه الشدائد.

واليوم يصطرع الناس على المادة ويقتتلون عليها ويُفني بعضهم بعضًا من أجلها: ذلك مبلغهم من العلم.

ورحم الله الشافعي إذ قال:

فإن تجتنبها كنتَ سِـــلمًا لأهلـــها وإن تجتـــذبها نازعتْـــكَ كِلابهـــا

ومن أسباب عبور هذه الشدائد بثبات التي نبّهنا القرآن الكريم إليها:

١ - أن ندرك أننا بحاجة في هذه الشدائد إلى تثبيت الله: وهذا يقتضي مهما نظرنا في الأسباب أن لا ننسى حقيقة الإعانة، فإذا أعان الله سبحانه وتعالى عبده استطاع أن يعبر الشدائد مهما كانت عصيبة.

ألم يعبر رسل الله عليهم الصلاة والسلام ما لا يتصور من المحن بتثبيت الله وإعانته؟

ألم يعبر إمامهم وسيدهم وخاتمهم محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ما لا يتصور من الشدائد والمحن؟ وكان ذلك بإعانة الله.

وقال الله سبحانه وتعالى وهو يذكّر حبيبه بهذه الحقيقة: { وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً، وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً، إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا } [الإسراء: ٧٣ - ٧٥].

{ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ } أي: كادوا من شدة ما يستعملونه من أنواع المحن وصنوف الشدائد التي لا يستطيع الإنسان عادة أن يتحملها، أن يجعلوك تاركًا بعض الثوابت التي قررها الله سبحانه وتعالى في مُحكم كتابه، وبيّنها إلى الإنسانية.

{ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ } أي: لتقدّم بديلاً من الآراء والأهواء التي تصطدم مع الثوابت.

{ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً } فلو أنك فعلت هذا وقدّمت رأيًا منبثقًا عن الهوى، بديلاً عن ثابت من الثوابت التي أرادها الله سبحانه وتعالى، ستجدهم يتخذونك خليلاً ومُقَرَّبًا وصاحبًا وصديقًا.

{ وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ } أي: لولا الإعانة، { لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً }

ولولا كما يقول علماء اللغة: حرف امتناعٍ لوجود، أي امتنع ركون النبيّ صلى الله عليه وسلم إليهم شيئًا قليلاً لوجود التثبيت والإعانة من الله سبحانه وتعالى.

ولو أن هذا حصل، وقد امتنع بنصّ القرآن:

{ إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ } وللعلماء في تفسيرها أقوالٌ كثيرة، يذهب أكثرها إلى تقدير: إذًا لأذقناك عذابًا ضعف عذاب الحياة.

والذي أميل إليه هو: أن الإنسان حينما يكون بعيدًا عن الله سبحانه وتعالى فإن حياته ستكون مُملَّة، وستكون حياة جفاء وغلظة وقسوة.

ورحم الله من قال:

وعمرُ النَّسر معكم بعــضُ يــومٍ وســاعةٌ هجــركم عــامٌ فَعــامُ

فحين يكون الإنسان بعيدًا عن الله سوف تكون حياته (وإن كانت قصيرة) مُملَّةً إلى درجة يشعر فيها أنها قد تضاعفت.

{ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ } فيموت جسدُه، ويموت ذكرُه، وتموت الإعمالُ الصالحات التي تبقى من بعده لغيره.

(إذا مات ابنُ آدم انقطع عملُه إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو عمل ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له).

فإذا مات مات مِيتَتَين: مات جسده، ومات ذكرُه وأثرُه.

والمعنى: لو أنك تركن إلى أهل الأهواء شيئًا قليلاً، وتعدِل عن ثوابت الإسلام إلى بعض الآراء التي تنبثق عن الأهواء وتصطدم مع تلك الثوابت، فسوف تكون حياتك مملة، ولن يذكرك التاريخ، وستكون بعد ذلك منسيًّا، ولن يذكرك الله سبحانه، وسوف تُنسى: ينساك الله، وينساك الخلق.

ولما نـــزل قوله تعالى: { وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً } داوم النبي صلى الله عليه وسلم على وردٍ ودعاءٍ كان يقول فيه صلى الله عليه وسلم: **(لا تكلني إلى نفسي طرفة عين)**، فهو يتبرأ من حوله وقوته، ويعتمد ويتوكل على الله، لأن الاعتماد على النفس اعتمادٌ على هوى، واعتماد على هواء وعلى باطل، واعتمادٌ على ما لا حقيقة له من ذاته.

إذًا: لا نستطيع أن نعبر الشدائد إلا حينما نحضر أولاً في قلوبنا هذه الحقيقة، وحين نتبرأ من حولنا وقوتنا إلى حول الله وقوته، ونستعين بالله سبحانه وتعالى، فما خاف من استعان بالله، وما خاب من طلب تأييد الله.

٢ - أن نكرّر في القلب معاني التوحيد: قال الله سبحانه وتعالى: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ } [إبراهيم: ٢٧]

والظلمُ ها هنا يتناسب بحسب السياق مع مفهوم الشرك الذي أشار الله سبحانه وتعالى إليه في آيات أخرى بقوله: { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان: ١٣].

والقول الثابت هو: "لا إله إلا الله"، بمعانيها وحقائقها.

فعلى الإنسان أن يكرر على قلبه هذه الحقيقة: لا إله إلا الله.. لا خالق إلا الله.. لا رازق إلا الله.. لا مُعزّ إلا الله.. لا مُذلّ إلا الله...

فالذين تتوهم أنهم يرزقونك ليسوا هم الذين يرزقونك إنما يرزقك الله، والذين تتوهم أنهم ينفعونك ليسوا هم الذين ينفعونك إنما ينفعك الله، وإذا توهمت أن أحدًا يرفعك أو يخفضك أو يعزّك أو يذلّك... فأنت واهم، إنما هم أدوات وآلات:

أُرانيَ كـــالآلات وهـــو محرّكـــي أنـــا قلـــمٌ والإقتـــدار أصـــابع

فالله سبحانه وتعالى هو الذي بيده مقاليد السماوات والأرض، وهو الذي يحرّكها ويسكّنها وحده.

فإذا كرّرنا على قلوبنا معاني التوحيد فإن القلب لن يتأثر بالشدائد، وسوف يعلم أن هذه الشدائد إنما هي من إظهار الله سبحانه وتعالى **"إِنَّمَا أَجْرَى الأَذَى عَلَى أَيْدِيهِمْ كَيْ لا تَكُونَ سَاكِنًا إِلَيْهِمْ"**، فوراء كلِّ شدةٍ ومحنةٍ حكمةٌ، وما من محنة إلا ووراءها منحة، وحينما يفهم الإنسان عن الله سبحانه وتعالى ويدرك أن الله سبحانه وتعالى ما أظهر شيئًا إلا ومن ورائه حكمةٌ عظيمة، عندها يثبت على الشدائد.

٣- تكرير الذكر: وإن كان هذا التكرير باللسان، لكن تكرير الذكر باللسان سرعان ما يسري أثره إلى القلب، قال الله سبحانه وتعالى:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [الأنفال: ٤٥].

اثبتوا ودعّموا اجتهادَكم للثبات بذكر الله، لأن ذكر الله يقود القلب إلى تعظيمه.

ما هي آفة الناس اليوم في أمة المليار ونصف؟

أليست الآفة الكبرى إنما هي قلة التعظيم في القلوب لله سبحانه وتعالى؟!

فلو أنهم عظّموا الله سبحانه وتعالى كما عظّم رسول الله، ولو أنهم أيقنوا أن العظيم الأعظم والكبير الأكبر إنما هو الله، فلا يمكن أن يقف إنسٌ أو جنٌّ في وجوههم، لكننا حينما اعتمدنا على الأشياء وَكَلَنا الله إلى الأشياء.

أين نحن من مشهد ذلك الأعرابيّ الذي يدخل على قائد الفرس وهو في زخرفه ونمارقه وأُبّهته فيقول له: **"جئنا لنخرجكم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد"؟!**

واليوم يسجد الناس للناس، ويعظم الناس الناس، ويعظم الناس الأشياء... أما تعظيم الله فإنه قد ضعف في القلوب، وما هذا إلا لأن هذا الذي انتمى إلى الإسلام لا يكرّر ذكر الله، فذكر الله حينما يُكرّر لابد أن يورث في القلب تعظيمًا للمذكور سبحانه.

٤- أن نُسمِع قلوبَنا خطاب الله: وخطابُ الله القرآن، فلابد من وِردٍ يوميّ يقرأ الإنسان فيه كتاب الله ويسمع فيه خطابه.

قال سبحانه وتعالى: { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } [النحل: ١٠٢] فبيّن سبحانه أن القرآن سببُ تثبيت الله للإيمان.

وقال تعالى: { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ } [الفرقان: ٣٢]

وهكذا قرر الله سبحانه وتعالى أن أعظم فؤادٍ وهو فؤاد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كان بحاجة إلى تثبيت القرآن.

فالقرآن حينما تتلوه وأنت تسمعه من الله تبارك وتعالى فإنه يثبّت فؤادك، فتكون بهذا قادرًا على اجتياز كلّ المحن والشدائد، مهما كانت تلك الشدائد عظيمة.

وحتى لا يتوهم متوهِّمٌ أن التثبيت خاصٌّ بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قال: { لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا } فهو سبب تثبيت لقلب النبي صلى الله عليه وسلم، وسبب تثبيت للذين آمنوا أيضًا.

٥ - أن نتذكر سِير الرسل عليهم الصلاة والسلام: فسيرة كل رسول من الرسل تتميز بخصوصية لا تجدها في سيرة غيرهم، وقد قصّ القرآن الكريم علينا سير الرسل واحدًا واحدًا من الذين أمرنا أن نؤمن بهم.

{ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ } [غافر: ٧٨]

فالذين قصَّهم علينا أورد في سيرهم ما نحتاج إليه في كل المحن وفي كل الظروف، فأنت تجد رسولاً في السجن، وتجد رسولاً في المرض، وتجد رسولاً في الأَسر، وتجد رسولاً في الملك، وتجد رسولاً في الصناعة، وتجد رسولاً في التجارة...

فالرسل عليهم الصلاة والسلام لم يأتِ ذكرُهم في القرآن من أجل أن يكونوا قصة للتسلية، إنما ليكونوا نماذج حاضرة أمام أعيننا، فإذا وقعنا في ظرف من الظروف تذكرنا عبدًا من عباد الله أيده الله بالثبات، فنثبت ونحن ننظر إلى سيرته.

إنهم نماذج التطبيق والامتثال لأمر الله سبحانه وتعالى، وقال الله سبحانه لحبيبه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: { وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ } [هود: ١٢٠]

فأنباء الرسل مثبّتة للقلوب، فحينما نكرر أخبار الرسل، ونصوغها مرارًا وتكرارًا، ونحكيها مرات ومرات، فإن هذا يشكل أمامنا نموذجًا حاضرًا نستطيع الإفادة منه، ونستطيع الخروج بالاعتبار ونحن نفهمه وندرك ما فيه.

٦ - الأخوّة الصادقة المؤازِرة: فلا تكن وحدك، **(إنما تأكل الذئب من الغنم القاصية)**، وحين تشذّ تَشذّ في النار، والأخوة الصادقة تجد بسببها ثابتًا قريبًا منك فتَثبُت.

واقرؤوا قوله تعالى وهو يخاطب رسولاً من رسله وهو موسى عليه الصلاة والسلام ويقول له:

{ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ } [القصص:٣٥]

ويقول لحبيبه صلى الله عليه وسلم: { هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ } [الأنفال: ٦٢].

وقال أهل المحبة:

ولقد يُعينك من شكوتَ له الهوى في حملـــه فالعاشـــقون رفـــاقُ

والعاشقون أنواع: فمنهم من عشق غريزته، ومنهم من عشق لقمته، ومنهم من عشق دنياه، ومنهم من توجه قلبه إلى الله وحده، وأولئك الذين قال الله فيهم: { يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ } [المائدة: ٥٤]...

وها هنا يظهر أهل المحبة الذين وقفوا على ركن شديد، حينما كان الله محبوبهم.

فتجد المحبّ الذي أحبّ الله مؤازِرًا للمحبّ الذي أحبَّ الله، وتجد الصادق مؤازِرًا للصادق، وتجد المخلص مؤازرًا للمخلص...

إذًا: هي أسباب ستة أكررها تعدادًا لأننا بحاجة إليها:

١- التوكل على الله والاعتماد عليه ونحن نعلم أنه بيده سبحانه وتعالى التثبيت.

٢- تكرير معاني "لا إله إلا الله" في القلب.

٣- تكرير الذكر لأنه يورث تعظيم الله في القلب.

٤- سماع خطاب الله في القرآن الكريم.

٥- أن نكثر من إيراد سير الرسل عليهم الصلاة والسلام.

٦- الأخوّة الصادقة المؤازرة.

فإن أنتم تمسَّكتم بهذه الأسباب تستطيعون عبور الشدائد كلها والمحن بثبات، وتستطيعون أن تكونوا أحباب الله في كل وقت.

وقد بايع أصحابُ النبيّ صلى الله عليه وسلم النبيّ صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في السراء والضراء والمنشط والمكره:

في السراء: في وقت النعمة.

في الضراء: في وقت الشدائد.

في المنشط: حين تكون النفوس نشطة.

في المكره: حينما تكره النفوس الحركة.

فبايعوا رسول الله على السمع والطاعة في السراء والضراء والمنشط والمكره.

ثبِّتنا اللهم على دينك، وعلى الاقتداء بحبيبك في الأقوال والأفعال والأحوال، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.